

والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره تعالى لتراكت  
الظلمات؛ ولهذا كل محل يفقد نوره فثُمَّ الظلمة والحصر»<sup>(١)</sup>.

والنور يضاف إلى الله ﷻ على وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها،  
وإضافة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ  
رَبِّهَا﴾<sup>(٢)</sup>، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء<sup>(٣)</sup>، وقد  
ثبت الأحاديث عن النبي ﷺ في إثبات صفة النور والفعل لله ﷻ، وأنه نور  
السموات والأرض وما فيهما، ومُنورهما وما فيهما، وهي على النحو الآتي:

الحديث الأول: حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام  
يتهجّد من الليل قال: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن  
فيهن، ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومن فيهن...» الحديث<sup>(٤)</sup>.

الحديث الثاني: حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ  
بخمسة كلمات فقال: «إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض  
القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل  
عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى  
إليه بصره من خلقه»<sup>(٥)</sup>.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٥١٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٣) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٢/ ٤٥.

(٤) متفق عليه: البخاري، كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، ١/ ٥٣٢، برقم ١١٢٠، ومسلم،  
كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم ٧٦٩.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله ﷻ: «إن الله لا ينام»، ١/ ١٦٢، برقم ١٧٩.

فإن الله ﷻ لا ينام وهو منزه عن ذلك، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾<sup>(١)</sup>، والسنة: النعاس. وهو ﷻ يخفض الميزان ويرفعه، وسُمِّي الميزان قسطاً؛ لأن القسط العدل وبالميزان يقع العدل. والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة، ويوزن من أرزاقهم النازلة، وقيل: المراد بالقسط: الرزق الذي هو قسط كل مخلوق يخفضه فيقتره، ويرفعه فيوسعه، والله أعلم<sup>(٢)</sup>، وهو ﷻ يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار الذي بعده، وعمل النهار قبل عمل الليل الذي بعده؛ فإن الملائكة الحَفَظَةَ يصعدون بأعمال الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل، والله أعلم<sup>(٣)</sup>، والله تبارك وتعالى حجاب النور: أي الحجاب المانع والساتر من رؤيته النور، وسبحات وجهه: نوره وجلاله، ولو كشف وأزال الحجاب المُسَمَّى نوراً، وتجلَّى لخلقه لأحرقت سبحات وجهه جميع مخلوقاته؛ لأن بصره ﷻ محيط بجميع الكائنات<sup>(٤)</sup>.

الحديث الثالث: حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنى أراه»، وفي رواية: «رأيتُ نوراً»<sup>(٥)</sup>، والمعنى حجاب النور فكيف أراه<sup>(٦)</sup>، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «...سمعت شيخ الإسلام ابن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥ .

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ١٦/٣ .

(٣) انظر: المرجع السابق، ١٧/٣ .

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧/٣ .

(٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، ١/١٦١، برقم ١٧٨ .

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٥/٣ .

تيمية يقول: «معناه كان ثم نور، أو حال دون رؤيته نور، فأنى أراه»<sup>(١)</sup>.  
وقوله ﷺ: «مَثَلُ نُورِهِ» قيل في تفسير «الهاء» أقوال على النحو الآتي:

القول الأول: مثل نور الله: أي مثل: هدى الله في قلب المؤمن.

القول الثاني: مثل نور المؤمن الذي في قلبه من القرآن والإيمان.

القول الثالث: مثل نور محمد ﷺ.

القول الرابع: مثل نور القرآن<sup>(٢)</sup>.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والصحيح أنه يعود على الله ﷻ، والمعنى: مثل نور الله ﷻ في قلب عبده، وأعظم عباده نصيباً من هذا النور رسوله ﷺ، فهذا مع تضمّن عود الضمير إلى المذكور، وهو وجه الكلام، يتضمن التقادير الثلاثة، وهو أتم معنى ولفظاً، وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده، وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل، وقابل، ومحل، وحامل، ومادة، وقد تضمّنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل: فالفاعل هو الله تعالى، مُفِيضُ الأنوار، الهادي لنوره من يشاء، والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحامل: همته، وعزيمته، وإرادته، والمادة: قوله وعمله<sup>(٣)</sup>.

وقوله ﷺ: «كَمْشَكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ» فيه أقوال

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٤٧/٢.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٧٨/١٩-١٧٩، وتفسير البغوي، ٣/٣٤٥، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١١/٢٦١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٢٨٠.

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٤٩/٢-٥٠.

النحو الآتي:

**القول الأول:** المشكاة: كلُّ كُوَّةٍ لا منفذ لها، وهذا مثل ضربه الله لمحمد ﷺ، والمصباح قلبه، والزجاجة صدره.

**القول الثاني:** المشكاة: صدر المؤمن، والمصباح القرآن والإيمان، والزجاجة قلبه.

**القول الثالث:** هو مثل للمؤمن غير أن المصباح وما فيه مثل لفؤاده، والمشكاة مثل لجوفه، ومعنى نور على نور: يعني إيمانه وعمله.

**القول الرابع:** مثل القرآن في قلب المؤمن.

واختار الإمام ابن جرير رحمه الله أن أولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلوب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم، فأمنوا به وصدقوا بما فيه، في قلوب المؤمنين مثل مشكاة، وهي عمود القنديل الذي في الفتيلة، وذلك هو نظير الكوة التي تكون في الحيطان لا منفذ لها، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة لأنه غير نافذ، وهو أجوف مفتوح الأعلى، فهو كالكوة التي في الحائط لا تنفذ، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: والمصباح هو السراج، وجعل السراج هو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾: يعني أن السراج الذي في المشكاة في القنديل: وهو الزجاجة وذلك مثل القرآن، يقول القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله، والشك فيه واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه البينات، ومواعظه فيها بالكوكب الدرّي، فقال:

﴿الزُّجَاجَةُ﴾، وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه، كأنه كوكب دُرِّيٌّ»<sup>(١)</sup>.  
وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾،  
وفي تفسيرها أقوال:

- ١ - قيل: شرقية غربية تطلع عليها الشمس بالغداة، وتغرب عليها،  
فيصيبها حر الشمس بالغداة والعشي، وهذا أجود لزيته.
- ٢ - وقيل: هي شجرة وسط الشجر ليست من الشرق ولا من الغرب.
- ٣ - وقيل: هي شجرة ليست من شجر الدنيا.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأولى هذه الأقوال قول من قال: إنها  
شرقية غربية، وقال: ومعنى الكلام: ليست شرقية تطلع عليها الشمس  
بالعشي دون الغداة، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب، فهي شرقية  
غربية»<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

والمعنى: هذا القرآن نور من عند الله أنزله إلى خلقه يستضيئون به  
﴿عَلَى نُورٍ﴾ على الحجج والبيان الذي قد نصبه لهم قبل مجيء القرآن، مما  
يدل على حقيقة وحدانيته، وذلك بيان من الله، ونور على البيان، والنور

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨٤/١٩، بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٨٧/١٩، وانظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي،  
٢٦١/١١، وتفسير البغوي، ٣/٣٤٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٢٨١، واجتماع  
الجيوش الإسلامية على غزو المعتلة والجهمية، ٥١/٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام  
المنان، للسعدي، ص ٥١٧.

الذي كان وضعه لهم ونصبه قبل نزوله، والله عَبَّكَ يوفق لا تباع نوره من يشاء من عباده، ويُمثَّل الأمثال والأشباه للناس، كما مثل لهم هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة، وسائر ما في هذه الآية من الأمثال، وهو سبحانه يضرب الأمثال عن علم سبحانه عَبَّكَ (١).

وذكر ابن كثير رحمه الله أن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في تفسير: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [إيمان العبد وعمله]: «فهو يتقلب في خمسة أنوار: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة» (٢).

وتكلم العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله على تفسير: ﴿مَثَلٌ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ أي كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفائها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي مضيء إضاءة الدر، ﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذي في تلك الزجاج الدرية ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾: أي يوقد من زيت الزيتون، الذي ناره من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمان، كانت متوسطة من الأرض كزيتون الشام، تصيبه الشمس أول النهار وآخره، فيحسن ويطيب، ويكون أصفى لزيتها؛ ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفائها ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٩/ ١٨٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٢٨١، وانظر: تفسير البغوي، ٣/ ٣٤٧.

تَمَسَّهُ نَارٌ ﴿ فَإِذَا مَسَّتْهُ النَّارُ أَضَاءَ إِضَاءَةً بَلِيغَةً ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ أي نور النار ونور الزيت ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فُطِرَ عليها بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة إشعال النار فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب: من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان أضاءَ إضاءةً عظيمةً؛ لصفاتها من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرّية، فيجتمع له: نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، ونور على نوره، ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكى معه وينمو، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم؛ وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تُقَرِّبُ المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فعلمه محيط بجميع الأشياء، فَلَتَعَلَّمُوا أَنْ ضَرَبَهُ الْأَمْثَالَ ضَرْبٌ مَن يَعْلَمُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ، وَتَفَاصِيلَهَا، وَأَنَّهَا مَصْلُحَةٌ لِلْعِبَادِ، فَلْيَكُنْ اشْتِغَالُكُمْ بِتَدَبُّرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، لَا بِالْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهَا، وَلَا بِمَعَارَضَتِهَا، وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»<sup>(١)</sup>، وهذه الآية من أولها إلى آخرها فيها فوائد عظيمة، وأمثال حكيمة بليغة؛ ولهذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا التشبيه العجيب الذي

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٥١٧.

تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقرُّ به عيون أهله، وتبتهج به قلوبهم، وفي التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

أحدهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذاً، وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبّه، ومقابلته بجزء من المشبّه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن الكريم، فتأمل صفة مشكاة، وهو كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء، وقد وضع فيها مصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرّي في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقوداً من زيت شجرة ﴿ لا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ ﴾: بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار، بل تصيبها الشمس أعدل إصابة، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقول: المشكاة: صدر المؤمن، والزجاجة قلبه، وشبّه قلبه بالزجاجة لرقّتها، وصفائها، وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة: فهو يرحم، ويحسن، ويتحنن، ويشفق على الخلق برأفته، وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلّب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى، وقد

جعل الله القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، وأحبها إليه: أرقها وأصلبها وأصفاها»<sup>(١)</sup>، والمصباح: هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة: هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى، ودين الحق، وهي مادة المصباح، التي يتقَد منها، والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة، والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نوراً على نور؛ ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه، ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل، والشرع، والفطرة، والوحي، فيريه عقله، وفطرته، وذوقه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان، فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشُّبه الباطلة، والخيالات الفاسدة<sup>(٢)</sup>.

١٣ - وضرب الله ﷻ مثلين لبطلان عمل الكفار فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوفًا حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ \* أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ

(١) عن خالد بن معدان، عن أبي أمامة يرفعه: «إن الله تبارك وتعالى في الأرض آنية، وأحب آنية الله إليه ما رُق منها وصفا، وآنية الله في الأرض قلوب عباده الصالحين». أحمد في الزهد، ص ٢٨٣، برقم ٨٢٧، وصححه الألباني بعد أن ذكر طريقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٤/ ٢٦٣، برقم ١٦٩١.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعتلة والجهمية، ٢/ ٤٩-٥٢، بتصرف يسير.

نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾.

فالمثل الأول ضربه الله ﷻ لأعمال الكفرة الذين جحدوا توحيدَه، وكذبوا بالقرآن وبما جاء به، مَثَلُ أعمالهم التي عملوها كسرابٍ بَقِيعةٍ - جمع قاعٍ - يحسبه العطشان ماءً، حتى إذا جاءه ملتمساً ماءً يستغيث به من عطشه لم يجد السراب شيئاً، فكذلك الكافرون بالله من أعمالهم التي عملوها في غرور، يحسبون أنها منجيتهم عند الله من عذابه كما حسب الظمآن السراب ماءً، فظنه يرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعُه عند الله لم يجده ينفعه شيئاً؛ لأنه عمله على كفرٍ بالله، ووجد هذا الكافرُ اللهَ عند هلاكه بالمرصاد، فوفاه يوم القيامة حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه عليها منه.

والمثل الثاني: ضربه الله ﷻ في بطلان أعمال الكفار، مثل ظلمات في بحر عميق كثير الماء، يغشاه موج، ومن فوق الموج موج آخر يغشاه، ومن فوق الموج الثاني سحاب، فجعل الظلمات مثلاً لأعمالهم، والبحر اللُّجِّيُّ مثلاً لقلب الكافر الذي مثل عمله مثل هذه الظلمات: يغشاه الجهل بالله؛ لأن الله ختم عليه فلا يعقل عن الله، وختم على سمعه فلا يسمع مواعظ الله، وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر به حق الله، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض<sup>(٢)</sup>، وهذا كقوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٩-٤٠ .

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٩٥/١٩-١٩٩، وأمثال القرآن، لابن القيم، ص ٢٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/٢٨٦ .

هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»<sup>(١)</sup>، قال السعدي رحمه الله: «فالكفار تراكمت على قلوبهم الظلمات: ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين، وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مُدبرون، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا؛ لأن الله خذلهم فلم يُعطيهم من نوره»<sup>(٢)</sup>.

وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً نفسياً بعد أن فسّر الآيات من قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾، هذا مضمونه: فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طوائف بني آدم كلهم أتمّ انتظام، واشتملت عليهم أكمل اشتغال؛ فإن الناس قسمان:

القسم الأول: أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله، وأن كل ما عارضه فشبّهات تشبّه على من قلّ نصيبه من العقل والسمع... وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح.

القسم الثاني: أهل الجهل والظلم، وهؤلاء قسمان:

١- الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل المركب

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٥١٩ .

الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

٢- أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل جهة، فهم بمنزلة الأنعام، بل هم أضل سبيلاً، فأعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، كظلمات: ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق؛ فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمداً ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة: فقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر رحمه الله أن شيخه ابن تيمية قال: الناس في الهدى الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ أربعة أقسام:

\* القسم الأول: قبلوه ظاهراً وباطناً، وهم نوعان:

- النوع الأول: أهل الفقه فيه، والفهم، والتعليم، وهم الأئمة الذين عقلوا عن الله تعالى كتابه، وفهموا مراده، وبلغوه إلى الأمة، واستنبطوا أسرارها، وكنوزها، فهؤلاء كمثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء، فأنبت الكلاً والعشب الكثير، فرعى الناس فيه ورعت أنعامهم، وأخذوا من ذلك الكلاً الغذاء والقوت، والدواء، وسائر ما يصلح لهم.

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على المعطلة والجهمية، ٢/ ٥٣-٥٨ .

- النوع الثاني: حفظوه، وضبطوه وبلّغوا ألفاظه إلى الأمة، فحفظوا عليهم النصوص، وليسوا من أهل الاستنباط والفقهاء في مراد الشارع، فهم أهل حفظ وضبط، وأداء لِمَا سمعوه، وهؤلاء بمنزلة الأرض التي أمسكت الماء للناس، فوردوه، وشربوا منه، وسقوا منه أنعامهم، وزرعوا به.

\* القسم الثاني: من ردّه ظاهراً وباطناً، وكفر به، ولم يرفع به رأساً، وهؤلاء أيضاً نوعان:

النوع الأول: عرفه وتيقن صحته، وأنه حق، ولكن حمله الحسد، والكبر، وحب الرئاسة، والملك، والتقدم بين قومه على جحده، ودفعه بعد البصيرة واليقين.

النوع الثاني: أتباع هؤلاء الذين يقولون هؤلاء سادتنا وكبراؤنا، وهم أعلم منا بما يقبلونه وما يردونه، ولنا أسوة بهم، ولا نرغب بأنفسنا عن أنفسهم، ولو كان حقاً لكانوا هم أهلهم، وأولى بقبوله، وهؤلاء بمنزلة الدوابّ والأنعام، يساقون حيث يسوقهم راعيهم<sup>(١)</sup>.

\* القسم الثالث: الذين قبلوا ما جاء به الرسول ﷺ، وآمنوا به ظاهراً، وجحدوه وكفروا به باطناً، وهم المنافقون، وهم أيضاً نوعان:

النوع الأول: من أبصر ثم عمي، وعلم ثم جهل، وأقرّ ثم أنكر، وآمن ثم كفر، فهؤلاء رؤوس أهل النفاق، وسادتهم، وأئمتهم، ومثلهم مثل من استوقد ناراً، ثم حصل بعدها على الظلمة.

(١) انظر: وصف الله لهم في سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦-١٦٧، وسورة الأحزاب، الآيات: ٦٦-٦٨، وسورة غافر، الآيتان: ٤٧-٤٨، وسورة ص، الآيات: ٥٧-٦١.

النوع الثاني: ضعفاء البصائر الذين أعشى بصائرهم ضوء البرق فكاد أن يخطفها، لضعفها وقوته، وأصم آذانهم صوت الرعد، فهم يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، فلا يقربون من سماع القرآن والإيمان؛ بل يهربون منه، ويكون حالهم حال من يسمع الرعد الشديد، فمن شدة خوفه منه يجعل أصابعه في أذنيه.

\* القسم الرابع: يكتمون إيمانهم في أقوامهم، ولا يتمكنون من إظهاره، ومن هؤلاء مؤمن آل فرعون، الذي يكتُم إيمانه، ومن هؤلاء النجاشي الذي صَلَّى عليه رسول الله ﷺ؛ فإنه كان ملك نصارى الحبشة، وكان في الباطن مؤمناً، وغير هؤلاء كثير<sup>(١)</sup>.

١٤ - وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>: أي الله ﷻ الذي يذكركم ويشني عليكم، وملائكته يدعون لكم، ويستغفرون لكم، وبسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال، والكفر، والمعاصي والذنوب إلى نور الهدى والإيمان، واليقين، والتوفيق، والعلم والعمل<sup>(٣)</sup>، قال القرطبي رحمه الله: «ومعنى هذا التثبيت على الهداية، لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٧٢-٧٦، بتصرف يسير.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣ .

(٣) انظر: جامع البيان، للطبري، ٢/ ٢٨٠، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/ ٤٤٦، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٦١٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ١٩٣ .

١٥ - وقال ﷺ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ \* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ \* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ \* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾<sup>(١)</sup>.

هذه أمثال ضربها الله ﷻ للمؤمن والإيمان، والكافر والكفر، كما أن هذه الأشياء المذكورات المتباينة المختلفة لا تتساوى، فكذلك فتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى، فلا يستوي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم، والضال والمهتدي، ولا أصحاب النار وأصحاب الجنة، ولا أموات القلوب وأحياؤها؛ فإن بين هذه الأشياء من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يُتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى وأحق بالإيثار<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء هذا التفسير عن السلف الصالح، فقد ذكر الإمام ابن جرير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾، قال: «هو مثل ضربه الله لأهل الطاعة وأهل المعصية، يقول: وما يستوي الأعمى، والظلمات، والحرور، ولا الأموات، فهو مثل أهل المعصية، ولا يستوي البصير، والنور، ولا الظل، والأحياء، فهو مثل أهل الطاعة»<sup>(٣)</sup>، وقال قتادة: «... خلقاً فضّل

(١) سورة فاطر، الآيات: ١٩-٢٢.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٤٥٧/٢٠، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٣٢٧/١٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٥٣٠/٣، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٦٣٤.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٤٥٨/٢٠.

بعضه على بعض، فأما المؤمن فَعَبْدٌ حَيُّ الأثر، حَيُّ البصر، حَيُّ النية، حَيُّ العمل، وأما الكافر فَعَبْدٌ مَيِّتٌ: مَيِّت البصر، مَيِّت القلب، مَيِّت العمل»<sup>(١)</sup> فاتضح بذلك أن الأعمى عن دين الله لا يستوي هو والذي قد أبصر دينه، وعلم وعمل، قال الله ﷻ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد قال الله ﷻ عن أصحاب الظلمات: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ اللهُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(٣)</sup>، فهم صم عن سماع الحق، بكم عن النطق به، فلا ينطقون إلا بالباطل، في الظلمات منغمسون: ظلمات الجهل، والكفر، والشرك، والظلم، والعناد، والإعراض، والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم؛ فإنه المنفرد بالهداية والإضلال بحسب ما اقتضاه فضله، وحكمته، وعدله<sup>(٤)</sup>.

١٦ - وقال الله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٥)</sup>، يقول تعالى: أفمن فسح الله قلبه، وشرح صدره لمعرفة، والإقرار

(١) المرجع السابق، ٤٥٨/٢٠ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢ .

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٩ .

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١١ / ٣٥٠، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير

كلام المنان، للسعدي، ص ٢١٨ .

(٥) سورة الزمر، الآية: ٢٢ .

بوحدايته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته، فهو على نور من ربه، وعلى بصيرة مما هو عليه، ويقين بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك الأمر متَّبِع، وعمّا نهاه الله عنه منته، وقد انشرح صدره للإسلام، فاتَّسع لتلقّي أحكام الله والعمل بها، منشراحاً قريح العين، كمن أقسى الله قلبه فأخلاه من ذكره، وضيَّقه عن استماع الحق، واتَّباع الهدى، والعمل بالصواب، فهو لا يلين لكتاب الله، ولا يتذكر آياته، ولا يطمئن بذكره؛ بل هو معرض عن ربه ملتفت إلى غيره، فهذا له الويل الشديد، والشر الكبير<sup>(١)</sup>، قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

١٧ - وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾<sup>(٣)</sup>.

كما كان الله ﷻ يوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كذلك أوحى إلى محمد ﷺ هذا القرآن العظيم، وسماه روحاً؛ لأن الروح يُحْيى به

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٢١/٢٧٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٥/٢٣٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤/٥١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٦٦٨ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥ .

(٣) سورة الشورى، الآيتان: ٥٢-٥٣ .

الجسد، والقرآن نَحْيًا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ وَالْعِلْمِ الْغَزِيرِ، وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ يَدْرِي مَا شَرَائِعُ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمُهُ عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شَرَعَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ جَعَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ نُورًا يَرشُدُ بِهِ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَيَسْتَضِيئُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فِي ظِلْمَاتِ الْكُفْرِ، وَالشُّبُهَاتِ، وَالضَّلَالِ، وَالْبَدْعِ، وَالشَّرْكِ، وَالشَّهْوَاتِ، وَالْأَهْوَاءِ الْمَرْدِيَةِ، وَيَعْرِفُونَ بِهِ الْحَقَائِقَ، وَيَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ<sup>(١)</sup>، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فهذا القرآن يعظ عن الأعمال الموجبة لسخط الله المقتضية لعقابه، ويحذر عنها ببيان آثارها ومفاسدها، وهو شفاء لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِ الشَّهْوَاتِ الصَّادِرَةِ عَنْ [عدم]<sup>(٣)</sup> الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني؛ فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد مما يوجب للعبد الرغبة في الخير، والرغبة عن الشر<sup>(٤)</sup>، وكقوله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٢١/٥٩٩-٥٦١، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٦/٥٣-٥٩، وتفسير البغوي، ٤/١٣٢، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤/١٢٤، واجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ٢/٨٧-٨٨، والضوء المنير على التفسير، من كتب ابن القيم، جمع: علي الصالح، ٥/٣٢٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٣) زيادة بقتضيتها السياق، أو الصادرة عن الانقياد للشرع.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٣٢٣.

لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا<sup>(١)</sup>، فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين بها، وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً؛ لأن الحجة تقوم عليهم به، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب من الشُّبُه، والجهالات، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود الرديئة؛ لأنه مشتمل على العلم اليقين الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، فمتى عمل به العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل<sup>(٢)</sup>، كقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(٣)</sup>، فهو يهديهم لطريق الرشد، والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة، وهو شفاء لهم من الأسقام القلبية؛ لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق، ويحث على التوبة النصوح، التي تغسل الذنوب، وتشفي القلوب، أما الذين لا يؤمنون بالقرآن ففي آذانهم صمم عن استماعه وإعراض عنه، وهو عليهم عمى، فلا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضللاً؛ لأنهم إذا ردّوا الحق ازدادوا عمى إلى عماهم، وغياً إلى غيهم، وينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي يُنادى وهو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٤١٦ .

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٤ .

في مكان بعيد لا يسمع داعياً، ولا يجيب منادياً، والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم<sup>(١)</sup>.

وفي قوله ﷺ في أول الآية: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا» مال الإمام ابن جرير رحمه الله إلى أن الروح هنا هو القرآن الكريم، وجزم به الحافظ ابن كثير رحمه الله، والسعدي رحمه الله، وقيل: إن الروح هنا: النبوة، وقيل: الرحمة، وقيل: الوحي<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في تفسير هذه الآية: «أي جعلنا ذلك الروح نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، فسَمَّى وحيه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، التي هي الحياة الحقيقية، ومن عدمها فهو ميت لا حي، والحياة الأبدية السرمدية في دار النعيم هي ثمرة حياة القلب بهذا الروح الذي أوحى إلى رسوله ﷺ فمن لم يحي به في الدنيا فهو ممن له جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا، وأعظم حياة في الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الجزاء أعظمهم نصيباً من هذه الحياة بهذه الروح، وسماه نوراً لما يحصل به من استنارة القلوب، وإضاءتها، وكمال الروح بهاتين الصفتين: بالحياة، والنور، ولا سبيل إليهما إلا على أيدي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، والاهتداء بما بعثوا به، وتلقي العلم النافع والعمل الصالح من مشكاتهم، وإلا فالروح ميتة مظلمة، فإن كان

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٦٩٧ .

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٥٥٩/٢١، وتفسير البغوي، ١٣٢/٤، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٥٣/١٦، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١٢٤/٤ .

العبد مشاراً إليه: بالزهد، والفقه، والفضيلة؛ فإن الحياة والاستنارة بالروح الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وجعله نوراً يهدي به من يشاء من عباده وراء ذلك كله، فليس العلم كثرة النقل، والبحث، والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال»<sup>(١)</sup>.

وقد أمر الله ﷻ بالإيمان بهذا النور العظيم فقال: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن ما في الكتاب الكريم من الأحكام، والشرائع، والأخبار أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل؛ ولهذا سماه الله نوراً<sup>(٣)</sup>.

وقد كتب الله الفوز والفلاح لمن آمن بالنبى ﷺ ونصره، وأتبع النور الذي أنزل معه، فقال ﷻ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٤)</sup>، ومع هذا البيان الواضح، والنور الساطع فقد كذب المشركون واليهود النبى ﷺ، فعزاه الله مسلياً له<sup>(٥)</sup> فقال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، ٨٨/٢ .

(٢) سورة التباين، الآية: ٨ .

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٤١٩/٢٣، والجامع لأحكام القرآن، للطبري، ١٨/١٣٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٨٠٣ .

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧ .

(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٤٥٠/٧، ٤٥٩/١٧، والجامع لأحكام القرآن، للطبري، ٤/٣٠٤، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١/٤٣٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ١٢٦ .

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١﴾، وقال ﷺ: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢﴾.

وقد ذم الله ﷻ من يجادل بالباطل بغير علم صحيح، ولا هدى، ولا كتاب منير يوضح الحق ويبينه، فلا عقل مرشد، ولا متبوع مهتدٍ، ولا حجة عقلية ولا نقلية، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٣﴾.

١٨ - وقال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾، الله ﷻ الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آياتٍ واضحات، وحججاً دامغاتٍ، ودلائل باهراتٍ، وبراهين قاطعات، وأعظمها القرآن الكريم؛ ليخرج الناس بإرسال الرسول ﷺ وما أنزله عليه من الكتاب والحكمة: من ظلمات الضلالة، والشرك والكفر، والجهل، والآراء المتضادة، إلى نور الإيمان والتوحيد، والعلم والهدى، وهذا من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، فله الشكر والحمد والثناء الحسن، لا إله غيره ولا رب سواه ﴿٥﴾، وهذا كقوله ﷻ:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٤ .

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٥ .

(٣) سورة الحج، الآية: ٨، وسورة لقمان، الآية: ٢، وانظر: تفسير السعدي، ص ٤٨٣، ٥٩٨ .

(٤) سورة الحديد، الآية: ٩ .

(٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ١٧٣/٢٣، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٣٠/١٧، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٠٧/٤، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٧٧٨ .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا \* رَسُولًا  
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ  
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾<sup>(١)</sup>.

١٩ - وقال ﷺ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ  
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا  
انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ  
بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ \* يُنَادُونَهِمْ أَلَمْ  
نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ  
الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ \* فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ  
وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ  
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ جاء عن الضحاك أن معنى ذلك: يوم ترى  
المؤمنين والمؤمنات يسعون هداهم بين أيديهم، وبأيامهم كتبهم<sup>(٣)</sup>.

وقيل: ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ الباء بمعنى في: أي في أيامهم، أو بمعنى عن: أي  
عن أيامهم<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ١٠-١١ .

(٢) سورة الحديد، الآيات: ١٢-١٥ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٧٩/٢٣، واختاره ابن جرير في هذا الموضع.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٧/٢٣٥ .

وقال أكثر المفسرين يعطي الله المؤمنين نوراً يوم القيامة على قدر أعمالهم، يمشون به على الصراط، ويُعطى المنافقون أيضاً نوراً خديعة لهم، كما قال ﷺ: ﴿يُحَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وقيل: إنما يعطون النور؛ لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره؛ لنفاقه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين، ولا يُعطون النور، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحاً وظلمة، فأطفأ بذلك نور المنافقين، فيخشى المؤمنون أن يُسلبوا نورهم كما سلبه المنافقون، فيسألون الله ﷻ أن يتم لهم نورهم، قال سبحانه عن ذلك: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ائْتِنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾<sup>(٣)</sup>.

وقد جاء في هذا النور أحاديث وآثار كثيرة، منها ما يأتي:

الحديث الأول: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سئل عن

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢ .

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨ .

(٣) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ٢٣/١٧٨-١٨٧، و٤٩٣-٤٩٦، وتفسير البغوي، ٤/٢٩٥، و٣٦٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٧/٢٣٣-٢٣٩، و١٨/١٩١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤/٣٠٨-٣١٠، و٣٩٢، واجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ٣/٨٦، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص ٧٧٩-٨٠٩ .

الورود، وفيه رؤية الله تعالى: «فيتجلى لهم يضحك، قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويُعطى كل إنسانٍ منهم - منافق أو مؤمن - نوراً، ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يُطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضواء نجم في السماء...»<sup>(١)</sup>.

الحديث الثاني: حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، قال: «يُؤْتُونَ نورهم على قدر أعمالهم: فمنهم من يُؤتى نوره كالجبل، ومنهم من يُؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يُؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقدُّ مرة»<sup>(٢)</sup>.

الحديث الثالث: حديث بريدة أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أن إكثار المشي في الظلم إلى المساجد يُثمر إعطاء النور التام يوم القيامة، فعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بشّر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة، ١/١٧٨، برقم ١٩١.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٣/١٧٩، والحاكم، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي على شرط البخاري، ٢/٤٧٨.

(٣) أخرجه أبو داود، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة، ١/١٥٤، برقم ٥٦١، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، ١/٤٣٥، برقم ٢٢٣، وقال: «هو صحيح مسند موقوف إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم». وأخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد، وأنس رضي الله عنهما، في كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة ١/٢٥٦، برقم ٧٨٠، ورقم ٧٨١، والحاكم في المستدرک، ١/٥٣، وقال الإمام المنذري عن رواية أبي داود

الحديث الرابع: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليضيء للذين يتخللون إلى المساجد في الظلم بنور ساطع يوم القيامة»<sup>(١)</sup>، وذكر الطيبي، والمناوي، ثم المبار كفوري: أن هذا النور يحيط بالمشائين إلى المساجد في الظلم من جميع جوانبهم على الصراط، لَمَّا قاسوا مشقة المشي في ظلمة الليل جوزوا بنور يضيء لهم ويحيط بهم على الصراط ووصف النور بالتأم، وتقيده بيوم القيامة تلميح إلى وجه المؤمنين يوم القيامة، وقولهم فيه: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، وإلى قصة المنافقين وقولهم للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾، وفيه أن من انتهز هذه الفرص، وهي المشي إلى المساجد في الظلم في الدنيا كان مع النبيين، والذين آمنوا: من الصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن سرعة المرور على الصراط بحسب النور، فمن كان نوره أعظم كان مروره على الجسر أسرع، وهو أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشعر، فمن الناس من يمرُّ عليه ويتجاوزه كلمح البصر، ومنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالريح، ومنهم من يتجاوزه كالطير، ومنهم من

= والترمذي: «ورجال إسناده ثقات» الترغيب والترهيب، ٢٨٩/١، وقال العلامة الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح للتبريزي، ٢٢٤/١: «الحديث صحيح لشواهده الكثيرة، عن جماعة من الصحابة جاوزوا العشرة، وقد خرجتها في صحيح أبي داود، برقم ٥٧٠».

(١) الطبراني في المعجم الأوسط، ٤٣/٢، برقم ٦٨٠، [مجمع البحرين في زوائد المعجمين]، وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب، ٢٩٠/١: «رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «وإسناده حسن» ٣٠/٢.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، ٩٤١-٩٤٢، وفيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ٢٠١/٣، وتحفة الأحوذى، للمبار كفوري، ١٤/٢.

يمرّ كالفرس الجواد، ومنهم من يمرّ كركاب الإبل<sup>(١)</sup>، ومنهم من يزحف زحفاً<sup>(٢)</sup> حتى يجيء آخرهم يسحب سحباً<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن الأنوار تقسم دون الجسر على حسب الأعمال، فيُعطى العبد من النور هناك بحسب قوة نوره، وإيمانه، ويقينه، وإخلاصه، ومتابعته للرسول ﷺ في دار الدنيا، فقال رحمه الله: «فمنهم من يكون نوره كالشمس<sup>(٤)</sup>، ودون ذلك كالقمر، ودونه كأشدّ كوكب في السماء إضاءة، ومنهم من يكون نوره كالسراج في قوته وضعفه، وما بين ذلك، ومنهم من يُعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ أخرى، بحسب ما كان معه من نور الإيمان في دار الدنيا، فهو هذا النور الذي بعينه أبرزه الله لعبده في الآخرة ظاهراً يُرى عياناً بالأبصار، ولا يستضيء به غيره، ولا يمشي أحدٌ إلا في نور نفسه، إن كان له نور مشى في نوره، وإن لم يكن له نورٌ أصلاً لم ينفعه نور غيره، ولما كان المنافق في الدنيا قد حصل له نور ظاهر غير مستمر ولا متصل بباطنه، ولا له مادة من الإيمان أُعطي في الآخرة نوراً ظاهراً لا مادة له، ثم يُطفأ عنه

(١) هذه الدرجات الست في صحيح مسلم، كتاب الإيمان، معرفة طريقة الرؤية، ١/١٦٩، برقم ١٨٣، قال أبو سعيد الخدري: «بلغني أن الجسر أدق من الشعر، وأحد من السيف»، مسلم، ١/١٧١، رواية الحديث رقم ١٨٣، والبخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ، ٨/٢٢٨، برقم ٧٤٣٩.

(٢) من رواية لمسلم، ١/١٨٧، برقم ١٩٥.

(٣) من رواية للبخاري، برقم ٧٤٣٩، وانظر: معارج القبول، للشيخ حافظ الحكمي، ٢/٨٥٠-٨٥٧.

(٤) انظر: مسند الإمام أحمد، ٢/٧٧، ٢/٢٢٢، وشرح أحمد شاکر للمسند، برقم ٦٦٥٠، ٧٠٧٢.

أحوج ما كان إليه»<sup>(١)</sup>.

وبيّن رحمه الله أن مشي الناس على الصراط بحسب سرعتهم في الخير في الدنيا، فقال: «مشيهم على الصراط في السرعة والبطء بحسب سرعة سيرهم وبطئه على صراط الله المستقيم في الدنيا، فأسرعهم سيراً هنا أسرعهم هناك، وأبطأهم هنا أبطأهم هناك، وأشدهم ثباتاً على الصراط المستقيم هنا أثبتهم هناك، ومن خطفته كلاب الشهوات، والشبهات، والبدع المضلّة هنا خطفته الكلاب التي كأنها شوك السعدان هناك، ويكون تأثير الكلاب فيه هناك على حسب تأثير كلاب الشهوات والشبهات والبدع فيه هاهنا، فنج مُسَلَّم، ومخدوش مُسَلَّم، ومخزول - أي مقطوع بالكلاب - مُكردس في النار كما أثرت فيه تلك الكلاب في الدنيا ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢٠ - وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

ضَمِنَ اللهُ ﷻ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّقْوَى ثَلَاثَةَ أُمُورٍ:

الأمر الأول: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيباً في الدنيا ونصيبياً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الأمر الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ٨٦/٢.

(٢) المرجع السابق، ٨٦-٨٧/٢.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

الأمر الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر، وتَرَكَ التقوى سبباً لكل عسر<sup>(١)</sup>.

وهذا الخطاب في هذه الآية فيه قولان لأهل التفسير:

١ - قيل تُحْمَلُ عَلَى مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، وَأَنْهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ؛ لِإِيْمَانِهِمْ بِأَنْبِيَائِهِمْ، ثُمَّ إِيْمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيُعْطَوْنَ بِذَلِكَ: نَصِيْبِينَ مِنَ الْأَجْرِ، كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فلا شك أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ فإنه يُعْطَى أَجْرَيْنِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَّنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ، وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَعَدَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدْبَاهَا فَأَحْسَنَ أَدْبَاهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ»<sup>(٣)</sup>.

٢ - وَقِيلَ: هِيَ فِي حَقِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِمَا ذَكَرَهُ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ افْتَخَرُوا بِأَنْهُمْ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ فِي

(١) الضوء المنير على التفسير، من كتب ابن القيم، للصالح، ٥/ ٦٢٤ .

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٤ .

(٣) متفق عليه من حديث أبي موسى ﷺ: البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، ٤/ ٢٥، برقم ٣٠١١، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ١/ ١٣٤، برقم ١٥٤، واللفظ له.

حق هذه الأمة<sup>(١)</sup>.

ومما يؤيد هذا القول ما رواه أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجلٍ استأجر قوماً يعملون له يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا له نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم هذا، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»<sup>(٢)</sup>.

قال العلامة السعدي رحمه الله: «ويُحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا هو الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين: ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم ﴿كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾: لا يعلم قدرهما ولا وصفهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، وأجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التشية المراد

(١) أخرجه ابن جرير بسنده، في جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٣/٢٠٩.

(٢) البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة من العصر إلى الليل، ٣/٦٩، برقم ٢٢٧١.

بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى»<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: وفي هذا أقوال:

١ - قيل: النور هنا: القرآن الكريم.

٢ - وقيل: الهدى.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكّره: وعد هؤلاء القوم أن يجعل لهم نوراً يمشون به، والقرآن مع أتباع النبي ﷺ نور لمن آمن بهما، وصدّقهما، وهدى؛ لأن من آمن بذلك فقد اهتدى»<sup>(٢)</sup>.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يعني هدى يتبصرون به من العمى والجهالة، ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة... وهذه الآية<sup>(٣)</sup> كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال العلامة السعدي رحمه الله: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: أي يُعطيكم علماً، وهدى، ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فلا يستغرب كثرة هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عمّ فضله أهل السموات والأرض، فلا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٨٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٣/٢١٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣١٨/٤.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

يخلو مخلوق من فضله طرفة عين، ولا أقلّ من ذلك»<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾، قيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام<sup>(٢)</sup>.

وقيل: تمشون به على الصراط<sup>(٣)</sup>.

وقد جمع بين هذين القولين الإمام ابن القيم رحمه الله، فقال: «وفي قوله: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلّبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور، وأنّ مشيهم بغير نور غير مجدٍ عليهم، ولا نافع لهم، بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم، ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط، إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم، وفي قوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه»<sup>(٤)</sup>.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٧٨٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٢٥٦/١٧.

(٣) تفسير البغوي، ٣٠٢/٤.

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ٤٣/٢.